الــفَــرقُ بَينَ صِـفَـةِ القُربِ وَالمَـعِيَّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصلى الله وسلَّم عليه وعلى آلِه وصحبه، ومن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بَعد:

فإنه سألنِي غير واحد من الطُّلّاب عن الفرق بين صفة القُرب والمَعيَّة، وكنت أبيِّن لهم ذلك في الدُّروس والأجوبة، لكن لَمَّا رأيت كثرة السائلين وبعض الإشكالات في ذلك أحببت أن أكتب لهم نبذة مختصرة في ذلك، فأقول _وبِالله أستَعِين_:

اعلم أخِي أن أهلَ العِلم اختلفوا في الفَرقِ بَينَهما، فمنهم من يجعل القرب كالمعيَّة، كالحافظ ابن رجب رحمه الله في فتح الباري (٣/ ١٦٠). [(١)]

والصَّحِيح أنهما صفتَان متغايرتان، لأنه ليس لفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية، ولا لفظ القرب في اللغة كلفظ المعيَّة،[(٢)] وأصرح دليل في ذلك ما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ». [(٣)]

فَإنَّه ﷺ ذكر في هذا الحديث صِفة القُرب ثم صفة المعيَّة، وهذا يدلُّ على التَّفريق بينهما.

---

(١) وهذا هو ظاهر صنيع الجامي في الصفات الإلهية للجامي (ص/ ٤٠٢).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٥) ومسلم (٢٧٠٤).

ولهذا نشير في هذه الرسّالة المختصرة إلى بعض الفوارق بين هاتين الصِّفتين:

الــفَــرقُ الأوَّل:

أن معنى القرب في اللغة: الدنوّ ضد البعد، ومعنى المعيَّة في اللغة: المصاحبة.

وهذا فرق ظاهر يرجع إلى اللغة.

وتَوضِيحُه: أن المعنى الكلي المشترك للقرب: الدنو ضد البعد، وهو يختلف باختلاف موارده، يقال: قرب الشيء بالضم يقرب إذا دنا، فهو قريب.

قال ابن فارس: " القاف والراء والباء أصل صحيح يدل على خلاف البعد، يقال: قرب يقرب قربا".[(١)]

وقال شيخ الإسلام: "فأما لفظ (القرب) فهو مثل لفظ (الدنو) وضد القرب البعد فاللفظ ظاهر في اللغة".[(٢)]

والمعنى الكلي المشترك للمعية: المصاحبة والمقارنة المطلقة، ولكن مقتضاها ولا زمها يختلف باختلاف الإضافة وقرائن السياق والأحوال.[(٣)]

قال شيخ الإسلام: "وذلك أن كلمة (مع في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة؛ من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى؛ فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك؛ وإن كان فوق رأسك.

---

(١) انظر مقاييس اللغة (٥/ ٨٠) والعين للخليل (٣/ ١٤٥٤) وتهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٢٢).

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ٢٣).

(٣) انظر تلخيص الحموية (ص/ ٤٧) والقواعد المثلى (ص/ ١٩٥).

ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [سورة الحديد:٤] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته". [١]

وينبغي أن ينتبه أنه لا يجعل المعنى الكلي للمعية: الاختلاط، لأنها لا تقتضي في أصل معناها أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر، وإن كانت تقتضي في بعض مواردها الاختلاط، كقولهم: الماء مع اللبن. [٢]

وابن فارس في مقاييس اللغة غالبا ما يفسر الكلمات بالمعاني الكلية، ولكن قد يغلبه المعنى الإضافي في بعض الأحيان، فيفسر الكلمة به، كما فعل في (مع) فلينتبه. [٣]

وبهذا يتضح هذا الفرق اللغوي بين الكلمتين، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام، فإنه قال: "ليس لفظ القرب في اللغة والقرآن كلفظ المعية، فإنه إذا قال: هذا مع هذا؛ فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى ولا اختلاطها بها؛ فلهذا كان إذا قيل: هو معهم؛ دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم وهو مع ذلك فوق عرشه؛ كما أخبر القرآن والسنة بهذا. ". [٤]

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣).

(٢) انظر تلخيص الحموية (ص/ ٤٧) والقواعد المثلى (ص/ ١٩٥).

قال ابن القيم في المدارج (٢/ ٢٥٤): " فـ(مَعَ) فِي لُغَةِ الْعَرَبِ تُفِيدُ الصُّحْبَةَ اللَّائِقَةَ، لَا تُشْعِرُ بِامْتِزَاجٍ وَلَا اخْتِلَاطٍ، وَلَا مُجَاوَرَةٍ، وَلَا مُجَانَبَةٍ. فَمَنْ ظَنَّ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ هَذَا فَمِنْ سُوءِ فَهْمِهِ أُتِيَ.".

(٣) انظر مقاييس اللغة (٥/ ٢٧٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٩).

الــفَــرقُ الــثَّــانــي:

أن قُرب الله لم يرد في الكتاب والسنَّة إلا خاصًا بحيث يكون القرب لبعض العباد أو لبعض أصناف العباد، ولم يأت أن الله قريب من جميع المخلوقات، بخلاف المعيَّة فإنها جاءت عامَّة وخاصَّة. (١)

وتوضيح ذلك: أن الأدلة التي وردت في إثبات صفة القرب لله سبحانه وتعالى إنما جاءت مقيَّدة ببعض المخلوقات أو ببعض أصناف العباد، ولم يجئ أن الله سبحانه قريب من كلِّ أحد، أو قريب من جميع المخلوقات، أو قريب من الكافر. (٢)

ولا شكَّ أن قرب الله حقيقي، يقرب من بعض خلقه ممن اختصه الله من بعض عباده من الملائكة أو الرسل أو الأنبياء أو غيرهم، وهذا قرب خاص. (٣)

---

(١) قال ابن تيمية في شرح حديث النزول (ص/ ١٢٤): "وليس في القرآن وصف الرب ـ تعالى ـ بالقرب من كل شيء أصلا، بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام". وانظر مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٣).

(٢) انظر الروضة الندية (ص/ ٢١٦).

(٣) قال ابن تيمية كما في المجموع (٥/ ٤٦٦): "وَأَمَّا دُنُوُّهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ".

قال ابن القيم في المدارج (٢/ ٢٥٥): " وَهَذَا الْقُرْبُ لَا يُنَافِي كَمَالَ مُبَايَنَةِ الرَّبِّ لِخَلْقِهِ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ. بَلْ يُجَامِعُهُ وَيُلَازِمُهُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ كَقُرْبِ الْأَجْسَامِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا".

الخلاصة أن أهل السنة لا يعنون بإثبات القرب لله أن ذات الله قريبة من كل موجود، لأنه لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّ نَفْسَ ذَاتِهِ قَرِيبَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٠) وإثبات علو الله على خلقه للعلامة التويجري (ص/ ١٥١).

ومن هذا قرب الملائكة، وبعضهم أقرب من بعض، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء:١٧٢].

وقُرب الله يأتي في الكتاب والسنَّة على نوعين: (١)

الأوَّل: قرب من الدَّاعي بالإجابة، لأنه القريب الذي يجيب دعوة الداع، وهذا قرب خاص، ودليله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٦]. (٢)

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ». (٣)

ومن هذا قربه عشيَّة عرفة، لحديث عائشة: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟». (٤)

---

(١) قال ابن القيم: "وَأَمَّا الْقُرْبُ: فَلَا يَقَعُ الْقُرْآنُ إِلَّا خَاصًّا. وَهُوَ نَوْعَانِ: قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ بِالْإِجَابَةِ. وَقُرْبُهُ مِنْ عَابِدِهِ بِالْإِثَابَةِ.".

انظر المدارج (٢/ ٢٥٤) وشرح المختار في أصول السنة للراجحي (ص/ ٣٧١) وصفة القرب بين أهل السنة والمخالفين لعبد الرحمن التركي (ص/ ٤٠٩). ومنهم من زاده نوعا ثالثا.

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ٢٤٧) وشرح حديث النزول (ص/ ١٢٠) والمدارج (٢/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٥) ومسلم (٢٧٠٤).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٣٤٨).

قال ابن تيمية: "وَدُنُوُّهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَا يَخْرُجُ عَنْ الْقِسْمَيْنِ". مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤٧).

والثَّاني: قرب من عابده بالإثابة، وهو قرب خاص من أهل طاعته، لقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة الواقعة: ١٠-١١]. (١)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». (٣)

وأمَّا المعيَّة فإنَّها جاءت في الكتاب والسنَّة بوجهين:

الأوَّل: المعيَّة العامَّة، وهي التي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن، وكافر وبَر وفاجر، في العلم، والقدرة، والتدبير والسلطان وغير ذلك من معاني الربوبية.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [سورة المجادلة: ٧].

---

(١) انظر المدارج (٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

قال ابن القيم في المدارج (٣/ ٢٥٥): " وَلَيْسَ الْقُرْبُ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ كُلِّهَا قُرْبَ مَسَافَةٍ حِسِّيَّةٍ وَلَا مُمَاسَّةٍ، بَلْ هُوَ قُرْبٌ حَقِيقِيٌّ، وَالرَّبُّ تَعَالَى فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَالْعَبْدُ فِي الْأَرْضِ.".

والثَّاني: المعيَّة الخاصَّة، وهي التي تقتضي النصر والتأييد لمن أضيفت له، وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم. (١)

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

والفرق بين المعيَّتين من وجوه:

الأوَّل: العامة من مقتضاها العلم والاطلاع والإحاطة بجميع الخالق، وأما الخاصة فمن مقتضاها النصر والتأييد والحفظ والتوفيق والسداد.

والثَّاني: المعية العامة من الصفات الذاتية، وأما الخاصة فمن الصفات الفعلية.

والثَّالث: العامة تكون في سياق تخويف ومحاسبة على الأعمال وحث على المراقبة، وأما الخاصة مرتبة على الاتصاف والأوصاف الفاضلة الحميدة. (٢)

وقد يجعل بعض أهل العلم كابن القيم القرب نوعا من المعيَّة، حيث يقسِّم المعيَّة إلى قسمين: عامة وهي معيَّة العلم والإحاطة، وخاصَّة، وهي معيَّة القرب، وهذا لا يظهر لي وجهه، لأن القرب شيء، والمعيَّة شيء آخر، والتلازم بينهما -إن وجد- لا يقتضي أن نجعل القرب نوعا من المعيَّة. (٣)

---

(١) انظر تلخيص الحموية (ص/ ٤٩).

(٢) انظر مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص/ ٩١) والكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص/ ٣٦٢) وشرح الواسطية للهراس (ص/ ١٧٩) ومجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ٢٢٧).

(٣) قال الشيخ عبد الله الغنيمان: "كونه يقسم هذا التقسيم فقد يتوهم بعض الناس أنه يقسم القرب نفسه إلى قسمين، والصواب أن هذه صفة وهذه صفة".

انظر المدارج (٢/ ٢٥٤) وشرح الواسطية للغنيمان (١٥/ ٦) وشرح سنن أبي داود للشيخ العباد (١٤٤/ ١٧).

ولعلَّه لم يرد القرب هنا صفة القرب، وإنما أراد الإشارة إلى المعية الخاصَّة ليس غير.

وقد أخطأ من أثبت قربا عامًّا كما سيأتي تقريره.

والخلاصة أن ما نطق به الكتاب والسنة من قرب الرب من عابديه وداعيه هو مقيد مخصوص، لا مطلق عام لجميع الخلق، وأما المعية فقد وردت عامة وخاصَّة.

قال ابن تيمية: "وَجَمِيعُ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ مِنْ الْقُرْبِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا هُوَ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا فِي الْمَعِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ وَصَفَ نَفْسَهُ فِيهَا بِعُمُومٍ وَخُصُوصٍ. وَأَمَّا قُرْبُهُ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْهُ فَهُوَ خَاصٌّ لِمَنْ يَقْرُبُ مِنْهُ كَالدَّاعِي وَالْعَابِدِ وَكَقُرْبِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَدُنُوِّهِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِأَجْلِ الْحُجَّاجِ". (١)

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٤٧٨) ومختصر الصواعق (ص/ ٤٨١) أو (٣/ ١٢١٥) ط: المحققة.

الـفَـرقُ الـثَّـالِـث:

أن القرب قد يضاف إلى الله، ويراد به قرب الملائكة بخلاف المعية، فإنها لم ترد إلا والمراد بها معيَّة الله مع خلقه حقيقة.

وَتوضِيح ذلك: أنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله عز وجل قريب من عباده حقيقة، كما يليق بجلاله وعظمته وهو مستو على عرشه بائن من خلقه، وأنه يتقرب إليهم حقيقة ويدنو منهم حقيقة، ولكنهم لا يفسِّرون كل قرب ورد لفظه في القرآن أو السنة بقرب الله سبحانه وتعالى، فقد يكون القرب قرب الملائكة، وذلك حسب سياق اللفظ.(١)

قال شيخ الإسلام: "وَلَا يَلْزَمُ مِنْ جَوَازِ الْقُرْبِ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ فِيهِ قُرْبُهُ يُرَادُ بِهِ قُرْبُهُ بِنَفْسِهِ، بَلْ يَبْقَى هَذَا مِنْ الْأُمُورِ الْجَائِزَةِ، وَيُنْظَرُ فِي النَّصِّ الْوَارِدِ، فَإِنْ دَلَّ عَلَى هَذَا حُمِلَ عَلَيْهِ، وَإِنْ دَلَّ عَلَى هَذَا حُمِلَ عَلَيْهِ".(٢)

وذلك لأن هذا اللفظ ورد بِصيغَتين:

الأولَى: بصيغة المفرد، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة:١٨٦]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة هود:٦١]، فالمراد بالقرب هنا عند أهل السنَّة قربه سبحانه وتعالى، ولا خلاف بينهم في ذلك. (٣)

---

(١) انظر الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٣٣٩).

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ١٤).

(٣) انظر مختصر الصواعق (١/ ٢١١) وتفسير ابن كثير (١/ ١٤٥) ودقائق التفسير (٢/ ٣٥٩)

قال شيخ الإسلام في شرح حديث النزول (ص/ ١٣٦): "فهنا هو نفسه سبحانه وتعالى القريب الذي يجيب دعوة الداع، لا الملائكة".

والثَّانِيَة: بصيغة الجمع، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق:١٦] وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الواقعة:٨٣-٨٥].

فاختلف أهل العلم في المراد بالقرب هنا بعد اتِّفاقهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من وريد العبد ومن الميت،[١] على قولين:

الأوَّل: أن المراد بالقرب هنا قرب الملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، وَأَضَافَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الْجَمْعِ عَلَى عَادَةِ الْعُظَمَاءِ فِي إِضَافَةِ أَفْعَالِ عَبِيدِهَا إِلَيْهَا بِأَوَامِرِهِمْ وَمَرَاسِيمِهِمْ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ نَحْنُ قَتَلْنَاهُمْ وَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [سورة القيامة:١٨] وَجِبْرَائِيلُ هُوَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا القول أدلَّة مذكورة في كتب الاعتقاد.[٢]

والثَّاني: أن المراد بالقرب هنا قرب الله بنفسه، وَهُوَ نُفُوذُ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فِيهِ وَإِحَاطَةُ عِلْمِهِ بِهِ، ولهذا قال بعض المفسِّرين: نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِحَاطَةِ.[٣]

قال شيخ الإسلام: " وقال بعضهم: بالعلم والقدرة، ولفظ بعضهم: بالقدرة والرؤية، وهذه الأقوال ضعيفة؛ فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود، حتى

(١) شرح حديث النزول (ص/ ١٣١) ومجموع الفتاوى (٥/ ٥٠١).

(٢) انظر مختصر الصواعق (٣/ ١٢٤٩) ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٦) والقواعد المثلى (ص/ ١٦٧).

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ٩) تفسير البغوي (٧/ ٣٥٨) وتفسير القرطبي (١٩/ ٤١٦).

يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية، ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء، تأوّلوا ذلك بأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، وكأنهم ظنوا أن لفظ [القرب] مثل لفظ [المعية]". [١]

وأمَّا لفظ المعيَّة فإنه لم يرد إضافته إلى الله مع أن المراد به معيَّة الملائكة، إذ لم يقل: ونحن معه، ويريد به الملائكة، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد، كما في الآيات الكثيرة.

ولَمَّا لم ينتبه بعض العلماء لهذه الحقيقة كالعلامة السِّعدي قسَّموا القرب إلى قسمين: [٢]

الأوَّل: قرب عام من كل أحد بعلمه، وخبرته، ومراقبته ومشاهدته، وإحاطته، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. [٣]

والثَّاني: وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومجيبيه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة، والتأييد في الحركات، والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول، والإثابة. [٤]

وهذا خلاف التَّحقيق لما تقدَّم في الفرق الثَّاني من أنه لم يأت القرب إلا خاصا، ولم يأت عاما، وما جعلوه عاما فهو من قرب الملائكة. [٥]

---

(١) شرح حديث النزول (ص/ ١٢٦).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين: "واعلم أن من العلماء من قسم قرب الله تعالى إلى قسمين؛ كالمعية، وقال: القرب الذي مقتضاه الإحاطة قرب عام، والقرب الذي مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص.

ومنهم من يقول: إن القرب خاص فقط؛ مقتضٍ لإجابة الداعي وإثابة العابد، ولا ينقسم، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وما ذهب إليه شيخ الإسلام؛ فهو عندي أقرب، ولكنه ليس في القرب بذاك.". انظر شرح الواسطية (٢/ ٩١).

(٣) انظر شرح المختار في أصول السنة للراجحي (ص/ ٣٧١).

(٤) انظر تفسير السِّعدي (ص/ ٨٧) والحق الواضح المبين (ص/ ٦٤٠).

(٥) انظر شرح الواسطية للشيخ الغنيمان (١١/ ١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولا حاجة إلى هذا؛ فإن المراد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: بملائكتنا في الآيتين، وهذا بخلاف لفظ المعية، فإنه لم يقل: ونحن معه، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا.

وهو نفسه الذي خلق السَّموات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ، مع تفريق القرآن بينهما.". [١]

---

(١) شرح حديث النزول (ص/ ١٣١).

الـــفَــرقُ الـــرَّابِـــع:

أنه لا يصحُّ تفسير القُرب بالعِلم، بخلاف المعيَّة فإنه تواتر عن السَّلف والأئمة تفسيرها بالعلم والإحاطة.

وَتَوضِيحُ ذَلك: أنه لا يصحُّ أن نفسِّر الآيات والأدلة الواردة في صفة القرب بالعلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٦]، فلا يقال: قريب بعلمه، لما تقدَّم من أن قرب الله لا يكون إلا قربا خاصًّا، وعلم الله عام لجميع الخلق.

ولكن لَمَّا ظنَّ بعض أهل العلم أن الله يوصف بالقرب من كلِّ شيء لورود القرب بصيغة الجمع في الآيات السَّابقة تأوَّلوا ذلك بأنه عالم بكل شيء، وقادر على كلِّ شيء، وكأنهم ظنوا أن لفظ [القرب] مثل لفظ [المعية]. [(١)]

وهذا فيه نظر بيِّن، لأنه لا يجوز أن يراد به في الآيات مجرد العلم.

قال شيخ الإسلام: "و [القرب] الذي ذكره هو العلم أو هو العلم والقدرة، وثبوت علمه وقدرته واستيلائه على كل شيء هو مما اتفق عليه المسلمون، وتفسير قربه بهذا قاله جماعة من العلماء، لظنهم أن القرب في الآية هو قربه وحده، ففسروها بالعلم لما رأوا ذلك عامًا. قالوا: هو قريب من كل موجود بمعنى العلم، وهذا لا يحتاج إليه كما تقدم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق:١٦] لا يجوز أن يراد به مجرد العلم؛ فإن من كان بالشيء أعلم من غيره لا يقال: إنه أقرب إليه من غيره لمجرد علمه به، ولا

---

(١) شرح حديث النزول (ص/ ١٢٦).

لمجرد قدرته عليه، ثم إنه سبحانه وتعالى عالم بما يسرُّ من القول وما يجهر به وعالم بأعماله". [(١)]

وأمَّا المعيَّة فقد تواتر عن السلف والأئمة تفسيرها بالعلم، ونقل غير واحد الإجماع على ذلك، وكلام السلف في ذلك معلوم مشهور. [(٢)]

قال شيخ الإسلام: "وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ أَنَّ هَذَا إجْمَاعٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ، وَلَمْ يُخَالِفْهُمْ فِيهِ أَحَدٌ يُعْتَدُّ بِقَوْلِهِ، وَهُوَ مَأْثُورٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ". [(٣)]

ولكن ينبغي تنبيهه أن السَّلف فسَّروا المعيَّة بالعلم؛ لأن أغلب الأدلَّة التي وردت في المعيَّة فيها قرينة العلم، سواء كان ذلك في آخر الآيات أو أولها، لا أنَّ معناها العلم. [(٤)]

---

(١) شرح حديث النزول (ص/ ١٣٢).

(٢) أخطأ الشَّوكاني في إنكار ذلك في التحف إلى مذاهب السَّلف.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٥).

(٤) قال الشيخ محمد بن إبراهيم: "إذا جاءَت هذه الكلمة فهي تفسير للمعية بالمقتضى ليست تفسيرًا لحقيقة الكلمة. والذي يحمل ويحدو على التفسير بهذا أَن المنازع في هذا المبتدعة الذين يقولون أنه مختلط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق وهو أَنه بكمال علمه، ولكن لا يريدون أَن كلمة (مع) مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم وزادت المعية بالمعنى وهو كونه معهم، فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أَن معناها باطل، فالكل حق، ولا يثبت ما سيق الشيء من أَجله إلا من أَجل ما سيق، لا يثبت المدلول الا بعد ثبوت الدليل، فلا يثبت العلم إلا بعد ثبوت المعية - وهي المقارنة المطلقة - وهي تختلف باختلاف مواردها، فقد يكون الشيء مع الشيء وبينهما من المسافة الشيء الكثير. فمعية الله شيء، ومعية الخلق شيء، ومعية الخلق بعضهم مع بعض شيء.

ولهذا شيخ الاسلام في عقيدته الاخرى المباركة المختصرة بين أَن قوله: (مَعَهُمْ) حق على حقيقته. فمن فسرها

ثم إن ذلك لا يقتضي الاقتصار على العلم، بل المعية تقتضي أيضا إحاطته بهم سمعا وبصرًا وقدرةً وتدبيرًا، ونحو ذلك من معاني ربوبيته. (١)

من السلف بالمقتضى فلحاجة دعت إلى ذلك وهي الرد على أَهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم. والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم والاستلزام والمقتضى وغير ذلك من الدلالات. وهؤلاء العلماءُ الذين روي عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية بل هي عندهم كالشمس".

انظر فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٢١٢ – ٢١٣) وشرح الواسطية لابن عثيمين (٢/ ٨٢).

(١) انظر القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين (ص/ ١٦١).

الــفَــرقُ الــخَــامِـــس:

أنَّه لم أجد أحدا من أئمة السنة الكِبَار عبَّر لتأكيد إثبات صفة المعيَّة بـ(الله معنا بذاته)، أو أن (معيَّة الله معيَّة ذاتيَّة)، ومن عبَّر بنحو هذا التعبير من أهل العلم المعاصرين المجتهدين أنكر عليه إنكارا شديدا، وكتب عليه ردود كما سيأتي إيضاحه.

وأما قرب الله فقد وقع في كلام ابن القيم: "ويوضح ذلك أن الإحسان يقتضي قرب العبد من ربه، فيقرب ربه منه إليه، بإحسانه تقرب تعالى إليه، فإنه «مَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ شِبْرًا يَتَقَرَّبْ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ مِنْهُ بَاعًا»، فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قربا ليس له نظير، وهو مع ذلك فوق سماواته على عرشه". [(١)]

وهذا الفرق ذكره بعض المعاصرين، وأنه يجوز أن يقال: الله قريب منا بذاته، ولا يجوز أن يقال: الله معنا بذاته. [(٢)]

وهذا الفرق في النَّفس منه شيء، وأنا متوقِّف فيه، وعبارة ابن القيم انتقد عليها بعض الفضلاء، وشكَّكوا فيها، وقالوا: لعله تصرُّف من الشيخ محمد الموصلي، لندرتها في كلام ابن القيم، أو أن هذا اجتهاد منه، ولعل تحرير ذلك يكون في وقت آخر. [(٣)]

ونحن إنما ذكرنا هذا لتحرير قضيَّة الشَّيخ ابن عثيمين.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٢٥٥).

(٢) انظر شرح التدمرية لناصر العقل (١٠/ ١١).

(٣) انظر النقول الواضحة الجلية عن السلف الصالح في معنى المعيَّة الإلهية الحقيقية للشيخ علي الحواس (ص/ ٦٥-٦٦) وإثبات علو الله ومباينته لخلقه والرد على من زعم أن معية الله للخلق ذاتية للعلامة التويجري (ص/ ١٠٦).

قَضِيَّةُ الشَّيخِ ابنِ عُثَيمِين وَكَشفُ الإشكَالِ عَنهَا

أشكل على كثير من الطلاب المعتنين بالعقيدة قضية الشيخ ابن عثيمين، وهل أخطأ الشيخ عقديا، أو لم يخطئ؟ وإن لم يخطئ عقديا فهل أخطأ في التَّعبير أو كان تعبيره صوابا؟.

هذه المسألة محلُّ نظر، ولم أجد إلى ساعتي هذه من حرَّرها تحريرا علميًّا، بعيدا عن التَّهويل أو التعصُّب، مبيِّنا أصل المسألة، والحامل عليها.

ومع قصر باعي وضعف فهمي وقلَّة نظري أحاول هنا أن أبيِّن أصل المسألة مع احترام العلماء الذين خاضوا في المسألة، فكلهم علماؤنا وحملة عقيدتنا، فأقول وبالله أستعين:

أَصلُ المَسألَة

تصوُّر هذه المسألة مرتبط بأن يعلم أن مذهب أهل السنة في جميع صفات الله سبحانه وتعالى إثباتها بدون تعطيل ولا تحريف، وبدون تمثيل ولا تكييف.

وأهل السنَّة يردُّون كثيرا على المتأوِّلة الذين يقولون بأن إطلاق هذه الصفات على الله من باب المجاز، وليس على حقيقتها.

وردُّ أهل السنَّة لهم كان باستخدام بعض العبارات، أهمُّها عبارتان:

الأولى: عبارة (بذاته) أو (ذاتيَّة).

والثَّانية: عبارة: (حقيقة) أو (حقيقيَّة) أو (على الحقيقة).

وأئمَّة السنَّة الذين استخدموا هذه العبارات كان مقصودهم الرد المعطِّلة الذين يجعلون هذه الصفات من باب المجاز، ليبينوا لهم أنها على حقيقتها، فيأتون بمثل هذه الألفاظ لتأكيد إثبات الصفة وبيان أنها صفة قائمة بذات الله لا بغيره. [(١)]

---

(١) قال الشيخ الألباني في مختصر العلو (ص/ ١٧): " وهذه اللفظة (بذاته) ... معقولة المعنى، ولا بأس من ذكرها للتوضيح".

واستخدام هذه الألفاظ ليس من باب تقرير الاعتقاد، بحيث يذكر هذا في كتب التقرير، ولذلك لا يلتزم لفظها، وإن كان مضمونها حقا، وقد يتورع بعض أهل السنة من بعض هذه العبارات، كالذهبي فإنه قال: "قد ذكرنا أن لفظة (بذاته) لا حاجة إليها، وهي تشغب النفوس، وتركها أولى، والله أعلم". (١)

ومع هذا فهو يعتقد أن أهل السنة ما قالوا هذا إلا لأجل الرد على المتأولة، يقول في صفة النزول: "ومسألة النزول فالإيمان به واجب، وترك الخوض في لوازمه أولى، وهو سبيل السلف، فما قال هذا: نزوله (بذاته)، إلا إرغاما لمن تأوله، وقال: نزوله إلى السماء بالعلم فقط، نعوذ بالله من المراء في الدين، وكذا قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر:٢٢]، ونحوه، فنقول: جاء، وينزل وننهى عن القول: ينزل بذاته، كما لا نقول: ينزل بعلمه، بل نسكت، ولا نتفاصح على الرسول ﷺ بعبارات مبتدعة، والله أعلم". (٢)

وقال الإمام ابن القيم بعد أن قرر هذا: "فالسامع قد أحاط علما بأن الخبر إنما هو عن ذات المخبر عنه، ويعلم المتكلم بذلك لم يحتج أن يقول أنه (بذاته) فعل وخلق واستوى، فإن الخبر عن مسمى اسمه وذاته هذا حقيقة الكلام، ولا ينصرف إلى غير ذلك إلا بقرينة ظاهرة تزيل اللبس وتعين المراد، فلا حاجة بنا أن نقول: استوى على عرشه بذاته، وينزل إلى السماء بذاته، كما لا يحتاج أن نقول خلق بذاته وقدر بذاته وسمع وتكلم بذاته، وإنما قال أئمة السنة ذلك إبطالا لقول المعطلة". (٣)

وبيان هذه المسألة والاستشهاد لها قد بسط في مواضع كثيرة.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ٦٠٧).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٣١):

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص/ ٤٤٥).

[مَقصُودُ الشَّيخِ ابن عُثَيمِين]

ولكن مقصودنا من هذا: بيان أن الشيخ ابن عثيمين لما كتب مقالا في صفة المعيَّة، وأراد أن يبين أن المعيَّة صفة حقيقية لله سبحانه وتعالى، وأراد توكيد ذلك استعمل لفظ: (ذاتيَّة) فقال: "عقيدتنا أن لله تعالى معيَّة حقيقية ذاتيَّة تليق به".

وكان مقصوده أن يؤكِّد حقيقة معيَّته تبارك وتعالى باستخدام بعض هذه العبارات، وأن هذه المعية هي مضافة الى الله عز وجل نفسه، ليست مضافة الى غيره، فهو الذي بنفسه معنا معيَّة تفتضي العلم والإحاطة، ولم يرد -وحاشاه من ذلك- أن الله سبحانه وتعالى مع خلقه في الأرض، ومن قرأ مقاله في ذلك تبيَّن له هذا بوضوح، ولكن ما أدري كيف خفيت هذا على بعض النَّاس؟!!.(١)

وكان الأولى للشَّيخ هنا أن يقتصر على قوله: (معيَّة حقيقيَّة) لأنه بهذا حصل مقصوده بدون إيهام لبس، كما فعل شيخ الإسلام في الحموية: "وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة ".(٢)

وذلك لأن كلمة (حقيقة) كانت مناسبة في هذا الموضع، لأنها نفي لمجاز المعيَّة، التي قال بها بعض أهل الكلام، والفرق بينها وبين (بذاته) في هذا الموضع ظاهر، ولذلك استعملها

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين: "وأردت بقولي (ذاتية) توكيد حقيقة معيته تبارك تعالى. وما أردت أنه مع خلقه سبحانه في الأرض، كيف؟، وقد قلت في نفس هذه الكتابة كما ترى: أنه سبحانه منزه أن يكون مختلطا بالخلق أو حالاً في أمكنتهم، وأنه العلي بذاته وصفاته، وأن علوه من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها.".

انظر القواعد المثلى (ص/ ١٦٥) بتحقيق الشيخ كمال العدني.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص/ ٥٢٠) بتحقيق التويجري.

كبار أئمَّة السنة، ولم يستخدم أحد فيما نعلمه لفظ: (بذاته) في هذا الموضع، لا من السلف ولا مِن أئمَّة السنَّة، ولكن قدر الله وما شاء فعل.[١]

ومن هذا يتبيَّن لنا مسألتين:

الأولى: أن الشيخ ابن عثيمين لم يخطئ عقديا، وأعني بذلك لم يعتقد عقيدة سيِّئة في ذلك، وأن الله مع المخلوق في الأرض، وإنما كان مقصوده تأكيد إثبات صفيَّة المعيَّة ليس غير.

قال الشيخ ابن عُثيمين: "لكن بعض الناس فهم من هذا فهماً خطأً ونحن بريئون منه والحمد لله من أول عقيدتنا إلى أن نلقى الله عز وجل، أن نقول: إن الله معنا في الأرض هذا لا نقول به إطلاقا".[٢]

والثَّانية: أنَّ التَّعبير الذي عبَّر به إنما عبَّر به جريا على ما تقدَّم توضيحه، ولكنه كان مجملا يحتمل حقا وباطلا، لا سيِّما في قضيَّة المعيَّة، فكان خطأً من هذا الوجه.



(١) انظر شرح الحموية للغفيص (١٧/ ٥) الشاملة.

(٢) انظر لقاء المفتوح لابن عثيمين (١٢٤/ ٧).

[بَيَانُ خَطأ الشَّيخ مِن وُجُوه]

وذلك لأمور:

الأوَّل: أن استخدام كلمة (بذاته) أو (ذاتيَّة) في المعيَّة تشكل على إثبات العلوِّ، لأنه يمكن أن يفهم منها الباطل، أو تستلزم الباطل، أو توهم الباطل، وهو كون الله في الأرض، أو اختلاطه بمخلوقاته، أو نفي علوه، أو نفي استوائه على عرشه. (١)

فإنَّك تقول: معيَّة الله معيَّة ذاتيَّة يفهم بعض الناس: الحلول والاتحاد والاختلاط والامتزاج، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. (٢)

قال الشيخ ابن عثيمين: "وكل كلام يوهم -ولو عند بعض الناس- ما لا يليق بالله تعالى فإن الواجب تجنبه لئلا يظن بالله تعالى ظن السَّوء، لكن ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو

---

(١) قال الشيخ الغنيمان في شرح الواسطية (١٤/ ١١): "ولا يجوز أن نقول: إنه معنا بذاته؛ لأنه إذا قيل بالذات فالذات معناها: أنه مختلط بالناس، تعالى الله وتقدس، فذاته على عرشه، ولكن مخلوقاته بالنسبة إليه صغيرة حقيرة.".

(٢) سئل الشيخ الغنيمان كما في شرح الواسطية (١١/ ١٩): هل قال أحد من السلف: إن الله معنا بذاته، ولا يلزم من هذه المعية الاختلاط، وهو مع ذلك على عرشه؟.

فأجاب: ما أعرف أحداً قال بهذا، ولا يجوز أن يكون هذا القول صدر من السلف؛ لأن من قال: الله معنا بذاته، فمعنى ذلك أن ذاته حالة معنا تعالى الله وتقدس، بخلاف إذا ما قالوا: المعية حقيقة على ظاهرها، فإن هذا حق وصواب، قال قول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله: المعية على ظاهرها، وهي معية حقيقية، وليس معنى هذا أنه معنا بذاته، بل بينهما فرق شاسع جداً، فالمعية الذاتية أن تكون الذات المقدسة حالة مع الخلق، ومختلطة معهم، تعالى الله وتقدس، وهذا كفر لا يقوله السلف ولا غيرهم ممن يعرف الحق ويتبعه، وإذا صدر ممن لا يفرق بين هذا وهذا فيجب أن يبين له ذلك.

على لسان رسوله ﷺ فالواجب إثباته وبيان بطلان وهم من توهم فيه ما لا يليق بالله عز وجل". (١)

والذين ردُّوا على الشيخ ابن عثيمين نظروا من هذه الحيثيَّة، ولم ينظروا إلى مقصود الشيخ، فكان قولهم صوابا من هذا الوجه، لا سيما وقد نصَّ بعض الأئمَّة على أن القول: (الله معنا بذاته) هو قول الجهمية القائلين بأن الله بذاته في كلِّ مكان، أو أنَّه معنا في الأرض. (٢)

وبهذا تعلم سرِّ تفسير السلف المعيَّة بالعلم، فإنهم كانوا يريدون بذلك الرد على هذا الفهم الضال المخطئ، كما يظهر لمن تمعَّن في الموضوع. (٣)

والثَّاني: وإذا كان الأمر كذلك فنكتفي بالأصل، وهو أنَّ كل شيء أضافه الله إلى نفسه فهو له نفسه، لأنَّ الْخَبَرَ وَقَعَ عَنْ نَفْسِ ذَاتِ اللهِ تَعَالَى لَا عَنْ غَيْرِهِ، فلا نحتاج إليه أن نقول: (بذاته) لا سيما وهي توهم معنى فاسدا لا يليق بمقام الله سبحانه وتعالى. (٤)

---

(١) القواعد المثلى (ص/ ١٦٦).

(٢) شرح التدمرية لناصر العقل (١٠/ ١٢).

(٣) ثم وقفت كلاما للشيخ ابن عثيمين يؤيِّد ذلك: "هذا وقد فسّر بعض السّلف معية الله لخلقه: بعلمه بهم، وهذا تفسير للمعية ببعض لوازمها، وغرضهم به: الردّ على حلولية الجهمية، الذين قالوا: إن الله بذاته في كل مكان، واستدلوا بنصوص المعية، فبيَّن هؤلاء السلف أنه لا يراد من المعية كون الله معنا بذاته؛ فإن هذا محال عقلاً، وشرعاً؛ لأنه ينافي ما وجب من علوه، ويقتضي أن تُحيط به مخلوقاته وهو محال".

انظر تلخيص الحموية (ص/ ٤٨).

(٤) قال الشيخ ابن عثيمين "سؤال: هل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

الجواب: هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه، لأنه يوهم معنى فاسدا يحتج به من يقول بالحلول، ولا حاجة إليه، لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ هل يحتاج أن نقول جاء بذاته؟ وإلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ينزل إلى السماء الدنيا هل يحتاج أن نقول ينزل بذاته؟ إننا لا نحتاج إلى ذلك، اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره؛ لرد تحريفه.".

والثَّالث: أن من الطوائف التي ضلت في صفة المعيَّة من قال: إنه على عرشه بذاته ومعنا بذاته، فاستعملوا عبارة (معنا بذاته) وهم يريدون بذلك أنه في الأرض، فكان فيه مشابهة لفظية بأهل البدع، والله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [سورة البقرة:١٠٤]. (١)

والرَّابع: -وهي الفائدة العظيمة- أن هذه العبارات التي أُتِي بها للرد على أهل الأهواء هي ألفاظ محدثة بلا شكٍّ، لم ترد بها الأدلة من الكتاب والسنة الصَّحيحة، ومثل هذه الألفاظ يَشترط أهل العلم في استخدامها أمرين:

الأوَّل: أن تكون ألفَاظًا سَائغة وتكون معانيها صحيحة، كلفظ البينونة، أي: أنه بائن من خلقه، أو نفي لفظ التشبيه في مقام التَّنزيه لا في مَقَام المناظرة. (٢)

والثَّاني: ألا تكون مجملا، بحيث تحتمل حقا وباطلا، سواء كان ذلك في أصلها، كلفظ الجهة والتحيز، أو في الموضع الذي يستخدم فيها، كلفظ (بذاته) في المعيَّة.

وذلك لأنَّ ما يتعلَّق بالعلوم الإلهيَّة يُعبَّر بحروف من فصيح الكلام الذي استعمله الأئمة، أو بفصيح الكلام الذي لم يستعملوه؛ بشرط ألا يكون هذا الحرف الذي لم يرد في الكتاب ولا في السنة مجملاً. (٣)

انظر شرح الواسطية (٢/ ٨٤) ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٨/ ٤٥٤).

(١) انظر الفتوى الحموية لشيخ الإسلام (ص/).

(٢) انظر حاشية الإسرافيلي على التدمرية (١/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) انظر شرح الواسطية ليوسف الغفيص (١٣/ ٧).

فإذا كان اللفظ مجملا من أصله يمنع استعماله مطلقا، وإن كان مجملا في بعض المواضع ترك استعماله في هذه المواضع، لأنه لا يجوز إزالة نجاسة البول بالحيض. (١)

ونحن إذا نظرنا إلى استخدام كلمة (بذاته) بمعنى التأكيد ونفي المجاز لا إجمال فيها باعتبار أصلها، ولذلك يجوز استعمالها في مقام لا يحتمل الإجمال، كقولك: الله سبحانه وتعالى بذاته فوق سماواته، لأنه أريد بها تصريح الحق وإيضاحه بكلمة واضحة، وقد استعملها الأئمة في مثل هذه المواطن.

وأما إذا استعملنا هذه الكلمة في سياق المعية، فإنها تكون مجملة، لأن أصحاب الحلول والاتحاد يقولون: (إن الله معنا بذاته)، فكلمة (ذاته) توهم حلولاً، فأصبحت من هذا الوجه في هذا السياق المعين مجملة، فلا يجوز إذن التعبير بها، وإن كان مقصود القائل صحيحا. (٢)

قال بعضهم: "ولهذا يقال: لا يجوز التعبير بهذه الكلمة في سياق المعية؛ لأنها ليست من أصل النص، ولا نطق بها القرآن ولا الحديث، ولما توهمه من الإجمال والإشكال". (٣)

ولذلك لم يصب الشيخ استخدام هذا اللَّفظ في هذا الموطن، وبهذا يعلم الفرق بينها وبين كلمة (حقيقية) أو (على حقيقتها) في هذا الموطن. (٤)

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود هنا أن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة، لما فيها من لبس الحق بالباطل، مع ما تُوقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة، والألفاظ التي بينت معانيها، فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة، وما كان معروفاً حصلت به المعرفة". انظر درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧١).

(٢) انظر شرح الواسطية ليوسف الغفيص (١٣/ ٧).

(٣) انظر شرح الواسطية ليوسف الغفيص (١٣/ ٧).

(٤) ونحن لا ننكر أن بعضهم قد يفهم من هذه العبارة أيضا بأن الله في كل مكان بذاته كما أشار إليه أستاذ العقيدة العلامة الجامي رحمه الله في الصفات الإلهية (ص/ ٢٤١) ولكن المنصف الصادق لا يستطيع أن يقول هذه الكلمة مثل (بذاته) في هذا الفهم، بل يرى بينهما بونا شاسعا، والله أعلم بالصَّواب، وإليه المرجع والمآب.

ويظهر لي فرق آخر بعد التأمُّل في القَضِيَّة، وهو أن يقال: الفرق بين قولهم (حقيقة) وبين قولهم (بذاته) أن قولهم: (حقيقة) يدفعون به المجاز العقلي، فيقال: معنا حقيقة، وقولهم: (بذاته) يدفعون به المجاز اللغوي، فيقال: استوى بذاته، حتى لا يؤوَّل بـ(استولى).

وهذا رأي جيِّد، ولكنه لا يسلم من الاعتراض، وهو مما لم أره لغيري، ولا نتجرأ على القول به إلا إذا وجد عالم قال به أو أقر بذلك.



[تَراجُع الشَّيخ]

ولأجل ما تقدَّم ذكره تراجع الشيخ عن هذه المقالة، وكتب مقالا في المعيَّة في بعض الجرائد طبع مع القواعد المثلى، ثم كتب تذييلا لكتاب العلامة التويجري المسمى: (إثبات علو الله ومباينته لخلقه والرد على من زعم أن معية الله للخلق ذاتية) مع أنَّه ردٌّ عليه.(١)

وهذا مما يدلُّ على تَواضع الشيخ رحمه الله تعالى، فإن حقيقة التواضع هو التواضع للحق، وعدم الاعتراض عليه، والتكبر عنه، ولو كان صاحب الحق شديد العبارة، غليظ الأسلوب، والتراجع عن الخطأ ولو كان في التعبير مطلوب، لا سيِّما في مثل هذه المسائل العظيمة المتعلقة بالذات الإلهية، لأنه يجب صيانة عقائد الناس من الألفاظ المجملة.

ولا شكَّ أن بعض من ردَّ عليه شدَّد عليه في الإنكار، وادَّعى بأن هذا القول وصمة كبيرة وزلة خطيرة، وأنه من أقوال أهل البدع.(٢)

وهذا لعمر الله تجاوز باهر، فإن الخطأ خطأ في التعبير، وله محمل حسن، ولكن ما صدر للغيرة على الدِّين والعقيدة فإنَّه يغتفر لصاحبه ما لا يغتفر لغيره، كما هو معلوم عند أهل العلم، ونحن علينا أن نحسن الظن بأهل العلم، والله يتولَّى السَّرائر، والله المستعان.

ولا شكَّ أن الحق يجب قبوله ممن جاء به في كل وقت وآن، ولكن استَغرَبت أن الذين ردُّوا عليه لم ينبِّهوا على مقصود الشيخ ولم يلتفتوا عليه، بل ظاهر كلامهم أن الشيخ أخطأ عقديا، وأوردوا الدلائل العظيمة والنقول الكثيرة الواردة في علوِّ الله سبحانه وتعالى!!.

---

(١) العلامة التويجري من أهل العلم الكبار، وهو محبوب عند أهل التصفية والتَّربية.

(٢) انظر النقول الصحيحة الواضحة الجلية عن السلف الصالح في معنى المعية الألهية الحقيقية للشيخ علي بن عبد الله الحواس (ص/ ٦-٧).

وهذه القضية رفعت من شأن الشيخ رحمه الله حيث تراجع عنها، ولعلها هي السبب في تأليف كتاب القواعد المثلى، فقد ذكر بعضهم أن الشيخ ألَّف هذا الكتاب لأجل الكلام في مسألة المعيَّة، ولبيان العقيدة الصحيحة السَّلفية في باب الصِّفات بالقواعد العلمية، والضوابط الجليَّة المبنية على الكتاب والسنَّة.

ويؤيِّد هذا مُقدّمة العلّامة شيخ الإسلام عبد العزيز ابن باز لهذا الكتاب، وذكره لمسألة المعيَّة بكلام واضح ليبرئ الشيخ رحمه الله من العقائد السيِّئة.

وأنا أعتبر هذا من نعم الله سبحانه وتعالى على طلاب العقيدة، فإنك لا تجد كتابا مثله في تأصيل باب الأسماء والصِّفات بأسلوب سهل ميسِّر مع اختصار وتهذيب جميل.

ولعل ما حصل للشيخ من الابتلاء لأجل هذه القضية لا يساوي شيئا مقابل ما جعل الله لهذا الكتاب من القبول، لا سيِّما وهو أوَّل كتاب يدرَّس في باب الأسماء والصِّفات.

وهذا يشبه ما حصل للبُخَاري من الابتلاء بسبب مسألة اللفظ، وكتابة خلق أفعال العباد، فإنه من نعم الله عليه وعلينا، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

كان الفراغ من تحرير هذا الجواب (٦/ شهر شعبان/ ١٤٤٣هـ) بقلم أبي مشكور عبد الشكور بن علي بن عبد الله الصَّومالي الإسرافيلي.

فَهرَسُ المُحتَويَات